بعض المذاهب الأدبية

للاستاذ عبد الحميد حسن

يذهب الأدباء فى تصوير الحياة ومظاهرها مذاهب شتى ترجح فيها بعض الاتجاهات ، وتتغلب وجهات من النظر على أخرى ، فمنهم من يتجه إلى الحقائق وصورها الظاهرة ، ومنهم من يجنح إلى الخيال ويرى فيه التخلص من المادة والتحرر من قيودها . ومنهم من ينظر إلى ما تنطوى عليه الحقائق وما يكمن وراءها من معان وألوان من الايحاء .

ومن هذا نشأت مذاهب ثلاثة وهى : الواقعى ، والمثالى ، والخيالى . ولكى يتبين منشأ هذه المذاهب نتجه إلى حقيقة الأدب لنرى مدى ما هنالك من صلة بينه وبينها ، ولنعرف ما عسى أن تتضمن من اتجاهات أدبية :

ومن المعلوم أن الأدب هو صورة صادقة من الحياة ومما يجرى فى أعماق النفس ، فمعرفة هذه الحياة والبحث فى حدودها ، وفهم ما ينعكس من صورها على صفحات النفس . وتفسير ما يكمن فى ثنايا مظاهرها من المعانى ، كل هذا مجال واسع لعقول الأدباء وميدان فسيح لأفكارهم .

وليس الادباء سواء فى اتجاههم ، فمنهم من يتجه فى إدراك الحياة إلى الحقائق الخارجية الواقعية ، ومنهم من يخرج عن دائرة الواقع المحسوس إلى الفسيح من ميادين الخيال ، ومنهم من يميل إلى جانب المثل العليا ، فلا يرى فى الحياة ظواهرها السطحية بل ينفذ إلى ما يكمن فيها مما لا تراه النظرة العابرة . وعلى ذلك نجد الاتجاهات التى أشرنا اليها .

(١) فالمذهب الواقعى أو الادب الواقعى يصور الحياة الطبيعية المألوفة ويتجه إلى الحقائق الخارجية الواقعية ، التى تستوقف الحواس ويمر بها الناس فى حياتهم .

وأنصار هذا المذهب هم ممن يميلون إلى الصريح من الحقائق ، والخالص من مظاهر الكون ، والواضح من ألوان الحياة ، ويجولون فى أفق الواقع فلا يهيمون فى سماء الخيال ، ولا يخرجون عن نطاق ما يبدو من ظواهر الحقائق ، وهم يرون أن الأدب الخيالى بعيد عن مسايرة قوانين الحياة الواقعية ونظمها ، وينظرون إلى مافيه من مشوقات وطرائف نظرهم إلى ما يتعلل به الاطفال من لعب ومباهج وزخارف .

وهذا المذهب ليس ضيق الميدان كما قد يتبادر ، فان أصحابه لا يحصرونه فى الحياة الحاضرة كما نراها ، بل يتخذون من صفحات الماضى وحياة السابقين مجالا لادبهم ، وصورا يبرزونها لقرائهم ، وليس أدبهم كذلك خلوا من الجانب الراقى من الوجدان الذى تنسج عناصره من الواقع .

ولكن اسرافهم فى الجرى وراء الحقائق ووقوفهم عند ظاهرها يبعدهم عن حقيقة لها مكانتها فى الادب ، وهى أن قيمته ليست فيما فيه من الحقائق بل فيما تثيره من عواطف ، وما تتضمنه من القوانين العامة للحياة . فالحقائق أشبه بالسلع ليس لها فى ذاتها قيمة ، وانما قيمتها فى ارتباطها بحياتنا وفى صلتها بمطالبنا ورغباتنا . وإن الفنون لا ترمى إلى عرض الحقائق بل الى عرض أثرها فى نفس الفنان وصبغها بلون جديد من الوان الحياة الصادقة وكل هذا لا نجد اليه السبيل إذا نحن لم نخرج عن نطاق الحقائق الواقعية الماثلة أمام حواسنا .

وإلى جانب هذا نرى أن الجرى وراء الواقع ينتهى بنا إلى حياة جامدة مقيدة بما يحيط بنا من مظاهر وبما يغمرنا من تقاليد العرف الذى يملك علينا حواسنا ، ويغلبنا على عقلنا وتفكيرنا ، ويحول بيننا وبين الحقائق البعيدة عن التمويه والتكلف ، ويصرفنا عما قد يكون فى الحقائق الواقعية من انحراف أو شذوذ أو اضطراب . وانا لنرى ذلك فى أنفسنا ، فان ما الفنا من تقاليد الحياة ، وما يحيط بنا من نظم

المجتمع ومواضعاته وعادات أهله يمتزج بنفوسنا ، ويتحكم فى تصرفاتنا وسلوكنا ، فلا نرى مانحن فيه مما يتجه اليه النقد وما ينحرف عن الصواب .

على أنا لانغض النظر عما فى هذا المذهب من مزايا ، ولعل أوضح مافيه من محاسن ، وأقوى ماله من أثر هو فى هذا الجانب الوقائى . فالأدب الواقعى خير علاج لهذا التوسط والتدهور الذى قد تصل اليه الاتجاهات الادبية التى تتخذ مقياسها من مظاهر صناعية متكلفة لاتمت إلى الواقع بصلة ولا ترتبط بالحياة فى صميمها .

٢ — المذهب المثالى

وأصحاب هذا المذهب يتجهون إلى الحقائق ، لكن لافى شكلها الواقعى ولافيما يبدو من مظاهرها الخارجية ، بل ينفذون الى مايكمن فيها من المعانى وما يتغلغل فى طياتها من ألوان الايحاء ، ويبرزون كل ذلك فى صورة تسطع من خلالها معان كامنة لايراها إلا من كشف عن عقلهم الغطاء فرأوا مافى ثنايا الحقائق ، وما تنطق به من بديع المعانى .

وإنا نرى ذلك فيما حولنا من مظاهر ومناظر ، من تغريد الطيور ، وتلاطم الامواج ، ويانع الثمر ، وناضر الازهار ، والسحب والكواكب وأنواع الطيور وغير ذلك . ففى كل هذا لايرى النظر السطحى إلا أصواتا وألوانا وأجساما ، ولكن المثالى يرى فيها آيات رائعة ، ويلمح فى الصامت من الحقائق بيانا قوى الدلالة وفى الثابت ألوانا من الاشعة المعنوية تخترق الفضاء ، وتسبح فى الجو فتملؤه بهجة وروعة .

وكذلك ترى المثاليين ينفذون إلى الفطرة الانسانية فيرونها على صورتها الواضحة ويتبينون ما فى تصرفات بنى الانسان وسلوكهم من تكلف أو جمود أو نزوع إلى المحاكاة وسهولة الانقياد للمألوف ، والاذعان للأمر الواقع الذى انطبع فى مظاهر الحياة ، يتبينون كل هذا فيرهفون أقلامهم لعلاجه وتخليص العقول من أغلاله ، ويرسمون للفكر الانسانى نهجه القويم .

٣ ـ المذهب الخيالى

وأصحاب هذا المذهب يحاولون التخلص من قيود الحياة الخارجية ، ويطلقون لخيالهم العنان فيبرزون من المعانى شتى الألوان ، ويعمدون للمألوف فيغيرون من أوضاعه وأشكاله ، ويصوغونه صوغا جديداً ، ويخرجون منه مناظر طريفة ، ولا يقتصرون فى ابداعهم على الطبيعى من المناظر بل يجولون فى الميدان النفسى والاجتماعى فيجيئون بصور من الأخلاق والشخصيات فى مظاهر جديدة وهم فى كل هذا يسيرون فى حدود القوانين الحيوية والقواعد العامة للانسانية .

ولهذا المذهب مكانة فى الادب ؛ لما للخيال من أثر فى الابداع وجمال التصوير ، أن الكاتب الذى يتخذه من الخيال وسيلة لتحلية أدبه يستطيع أن يتنقل بالقارىء بين أودية من المعانى ، وألوان من طرائف الحياة ، ويسبح به فى عالم يرى كل مافيه جديداً ، ويحس بأن حياته قد نهجت نهجا جديدا ، وأن ما حوله قد اصطبغ بصبغة جديدة ، وظهر على غير ما كان يعهد ، فيرى البعيد قريبا ، والقليل كثيراً ، والصعب يناً ، والبغيض محببا ، أو يرى عكس كل هذا .

والكاتب الخيالى إذا كان رائده سامى الغايات ونبيل المقاصد ، استطاع أن يكون مرشداً إلى الجديد النافع ، وحافزاً على جليل الاعمال ، ويكون تصويره باعثا على النشاط النفسى ، وعونا على سعة الافق العقلى ، وموحيا بأنواع جديدة من نظم الحياة ومناحى التفكير . أما إذا اشتط وهام فى وديان الضلال ، وخرج على قوانين الحياة فان إنتاجه يكون ضعيف الاثر أو منحرف القصد ، وقد يوقظ عواطف هابطة فينحرف بالخلق عن سواء السبيل .

* * *

وإذا نظرنا إلى ما بين هذه المذاهب من صلة ، وجدنا أن المذهب الواقعى لا يلقى المذهب الخيالى فى ميدان ، بل هما متقابلان ، فالواقعى يرتبط بالحقائق ، والخيالى لا يتجه اليها بل يخلق فى ميدان الابداع والابتكار . والواقعى والمثالى

بينهما صلة من بعض النواحى فكلاهما موضوعه الحقائق ولكن الواقعى يصورها كما هى فى الخارج وفى رأى الحس . أما المثالى فانه ينفـــذ إلى باطنها ومعانيها الكامنة

* * *

ولنلق بعد هذا نظرة سريعة على نصيب الأدباء واختيارهم مذهبا من هذه المذاهب ونصيب أدبنا العربى منها . أما الادباء واختيارهم مذهبا من هذه المذاهب فانه يرجع إلى ميولهم واستعدادهم وما أحاط بهم مما يبعث على تنشيط الخيال او تقييده ، أو إلى تغلب الحياة المادية التى تجتذب التفكير وتصرف العقل عن التحليق فى ميادين الجديد المبتكر ، فمن الكتاب من طبع ادبه بطابع خيالى عميق ، ومنهم من تقتاده الحقائق الظاهرة فينسج منها أدبه ، ومنهم من ينشد المثل العليا ويجنح إلى ما وراء المادى المحسوس ، وينفذ إلى أعماق الحياة وما فيها من مظاهر طبيعية ونظم اجتماعية وعادات وطباع ، ومنهم من يأخذ من كل هذا بطرف فتتجلى فى أدبه الوان من الواقع والمثل الاعلى والخيال

ولسنا نريد بهذا أن نجرد أنواعا خاصة من الادب من الخيال ، فانه من الدعائم ذات الشأن فى حسن الابانة وجودة التصوير ، وله شأن فى جميع الفنون ، ولا أن نضع حواجز منيعة بين هذه المذاهب فنحظر أن يعاون بعضها بعضا ، ولا أن نقيد الادب بمذهب منها لايتعداه فى جميع أحواله .

* * *

أما نصيب الأدب العربى من هذه المذاهب ، فانا نجد منها ألوانا منثرة فى ثناياه ، ونجد من ضروب الخيال قدراً عظيما يتجلى فى أنواع الاستعارة والتشبيه ، وفيما سطره بعض الأدباء من قصص مثل رسالة الغفران للمعرى ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسى ، وفى المقامات . ونجد كذلك من حقائق الحياة وروائع الحكم ونواحى المثل العليا قدرا ليس بالقليل منبثا فى ثنايا المأثور من نظم ونثر فى عصور الأدب العربى المختلفة ولا سيما العصور

الخصبة الزاهية التى تجلى فيها العقل العربى الخالص ، او الذى اصطبغ بما كان للعناصر التى دخلت فى حوزة العرب من علم وفن ومدنية . وانا نترك ذلك للباحث بتعرفه من قراءة فنون الادب العـــربى فى مختلف المراحل من قـديم وجديد .

عبد الحميد حسن
الأستاذ بدار العلوم